عندما كنتُ طفلاً، كنت أتناول طعام الغداء في منزل جدّي وجدّتي، والدَي أمّي، نهار الأحد .كانا يعيشان في شقّة كبيرة باردة ويُظهران محبّتهما بتحفُّظ، فأقضي معظَم الوقت جالساً على كرسيّ محاولاً التصرّف بأدب .من مكاني، كنت أرى صورةً معلّقة على الحائط لرجلٍ وَقورٍ رَصين، بالإضافة إلى كتابٍ لونه أصفر زاهٍ يبرز من بين كتبٍ أخرى سوداء وبنيّة اللونِ مكدَّسة على أحد الرُّفوف.

بعد عدّة سنوات، عدتُ إلى تلك الشقّة لمساعدة والديَّ في نقل محتوياتها وتخزينها .عندما رفعتُ الصورةَ المعلّقة على الحائط، وجدتُ على ظهرها توقيع البارون ماكس ڤون أوپنهايم.

بينما كنت أتصفح الكتاب الأصفر، وجدتُ في داخله مغلّفاً خُتِمَ ظهره بالكلمات التالية: ماكس فرايهر ڤون أوپنهايم .برلين- شارلوتنبورغ، سافينيپلاتز ٦ .كاَن المغلَّف مُرسَل إلى: السيّد فائق بُرخُش .بيروت/سوريا.

داخل المغلف، وجدتُ بطاقة بريدية لمنحوتة تمثل طيراً ما، وبطاقة عَمَل دُوِّنَ عليها بالفرنسيّة: البارون ماكس أوپنهايم .وزير ألمانيا .مع تمنّياتي بسنةٍ طيّبة وسعيدة .تحياتي .٠٢ كانون الأوّل ٢٣٩١.

وقعتُ في حيرة: كيف وصلت تذكارات تخصُّ أحد نبلاء ألمانيا إلى غرفة طعام عائلة لبنانيّة هادئة؟

«أجابت أمّي مباشرة وباختصار: »إنها قصّة تجسُّس.

إليكم القصّة:

في صباح أحد الأيّام، خرجت قبيلةٌ بدويّة لدفن أحد مُسنّيها على تلّة .وبينما كانوا يحفرون قبره، تفاجأوا بتمثالٍ حجريٍّ كبير ذو رأس إنسان .دفعهم خوفهم إلى ردم التمثال في التراب والمضيّ للبحث عن موقَعٍ آخر للدفن.

في تلك السنة، عانت أراضي تلك القبيلة من جفاف لم يسبق له مثيل .كما غزاها سربٌ من الجَراد وتفشّى فيها مرض الكوليرا .عَزَت القبيلة البلاء الذي أصابها إلى أرواح شريرة تسكن التمثال الحجري الذي كُشِفَ من تحت التراب، وراحوا يفكرون في طريقةٍ للتخلص من اللعنة التي حلَّت بهم.

عندما وصل ماكس ڤون أوپنهايم إلى قرية تَل حَلَف في صيف العام ٩٩٨١، أخبره رجال القبيلة عن الآلهة والشياطين والوحوش المختبئة تحت الأرض، أملاً في أن يدفع الفضول ذلك الأجنبي إلى نَبش التمثال، لعلَّ اللعنة تزول عنهم.

كان ماكس ينوي المكوث في تَل حَلَف لليلة واحدة فقط .كان في وقتها دبلوماسيّاً ألمانيّاً في التاسعة والثلاثين من عمره، يقيم في القاهرة، وفيً طريقه إلى العراق لتأسيس خطّ سكة الحديد التي سوف تصل بغداد ببرلين.

أسَرَت تلك القصة مخيّلته، فتناول مجرفةً واتجه نحو موقع التمثال المدفون .ومع حلول الليل، كان قد اكتشف بضع تماثيلَ أخرى .في تلكَ الليلة، وصلت رسالةٌ عاجلة إلى مخيّمه تطلب منه العودة إلى برلين فوراً .تفاجأ بالرّسالة، فأعاد دفن التماثيل في التراب ووعد نفسه بالعودة في أقرب وقت ممكن.

استغرق الأمر منه إثنَي عشر عاماً للحصول على الإذن اللازم من الإمبراطورية العثمانية من أجل العودة للبحث عن كنزه المدفون .عندها عثر ماكس على بقايا مدينة بأكملها مدفونة تحت سهول تَل حَلَف.

كان أهم اكتشاف له هو قصرٌ تضم واجهته رواقاً يبلغ ارتفاعه خمسةَ أمتار لآلهةً واقفة فوق أجساد حيوانات، ومقبرةً فيها منحوتة لامرأة جالسة .لكنّ الحرب العالمية الأُولى اندلعت قبل أن يتمكن ماكس من مشاركة اكتشافاته مع العثّمانيين، واضطر إلى المغادرة تاركاً وراءه كل شيء.

في العام٧٢٩١، وهو في السابعة والستين من عمره، عاد ماكس إلى تَل حَلَف للمرّة الثّالثة .في ذلك الوقت، كانت الإمبراطورية العثمانية قد تقسّمت، والقرية قد أصبحت ضمن حدود سوريا، الواقعة تحت الانتداب الفرنسي.

اصطحب ماكس معه إيغور فون ياكيموڤ، وهو نحات روسي متخصِّص في أعمال الجصّ .صنع ياكيموڤ نُسَخ مطابقة لعددٍ من الآثار، وُزّعت على كلٍّ من الأجهزة الحاكمة، بالإضافة إلى حصّتها من الآثار الأَصلية.

كان هناك أيضاً مهندس معماري مهمّته رسم الآثار، ومصوِّر فوتوغرافي لتوثيق العمليّة بأكملها . بالإضافة إلى كلّ ذلك، قاموا بتجميع عيّناتٍ من الحيوانات والنّباتات، وبتسجيل الأغاني والقصص

.البدويّة، حتى أنهم احتفظوا بسجلٍّ عن تقلّبات الطَّقس في تَل حَلَف
بعد تقسيم المكتشافات، تم نقل حصّة سوريا من الآثار إلى حلب، حيث شكّلت نواة مقتنيات
.المتحف الوطني هناك، الذي تأسَّسَ في العام ١٣٩١

عند عودته إلى برلين، حاول ماكس العثور على مكانٍ يودع فيه نصيبه من المكتشافات .حاول التّفاوض مع متحف البيرغامون، الذي كان قيد الإنشاء في ذلك الوقت، لكنه لم ينجح .هكذا، قرر ڤون أوپنهايم تأسيس متحفه الشخصيّ، تحت اسم »متحف تَل حَلَف« في مصنعٍ مهجور فيمنطقة
. شارلوتنبورغ

سرعان ما أصبح متحف تَل حَلَف في برلين محطَّ اهتمام السّواح، نظراً لأنه لم يفرّق بين الاكتشافات الأثرية وبين السَّجاد والملابس، ولم يتبع قواعد الحفظ والتأريخ المعتادة .من بين زوّار المتحف الكثيرين كان عالم الآثار البريطاني ماكس مالوان وزوجته أغاثا كريستي، صاحبة روايات الجرائم الشهيرة، التي تذكر في سيرتها الذاتيّة كيف طافَ بها ڤون أوپنهايم في جولةٍ مُضنِية دامت خمس ساعات، توقّف خلالها في لحظةٍ عن شرحه الحماسيّ ليقول بنبرةٍ رقيقة: »آه، ڤينوس، يا جميلتي«!، وهو يرفع نظره نحو تمثال امرأةٍ جالسة.

في ٢٢ تشرين الثاني من العام٣٤٩١، أصيب متحف تَل حَلَف بقنبلة فوسفوريّة .دمّرت درجات الحرارة التي فاقت الألف درجة مئويّة جميع القطَع الأثريّة باستثناء تلك المصنوعة من البازلت، وهو حجرٌ بركانيٌّ مقاومٌ للحرارة .عندما حضر رجَال الإطفاء لإخماد ألسنة اللَّهَب، أدّى تغيّر الحرارة
.المُفاجىء بين المياه الباردة والحجارة الملتهبة إلى تفتّت القِطَع

بالرّغم من المصاعب اللوجستيّة، تمكّن مدير متحف الشَّرق الأدنى القديم في برلين من جَمع وتعبئة الأجزاء المتحطِّمة بالنّيابة عن ڤون أوپنهايم .وفي آب العام٤٤٩١، نُقلَت تسع شاحنات ممتلئة
.بالحُطام إلى أقبية متحف البيرغامون في انتظار مصيرٍ غير مُحدَّدَ

توفِّيَ ماكس ڤون أوپنهايم وهو على أعتاب السادسة والثمانين من العمر .ودُفنَ في مدينة لاندسهوت تحت نسخةٍ من البازلت للنّصف الأسفل من تمثال المرأة الجالسة الَتي لطالما أسَرَت
.مخيلته

بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح متحف البيرغامون في برلين الشرقية، بينما متحف تَل حَلَف المُحتَرِق جاثماً في برلين الغربية .كان من المستحيل فعل أيّ شيءٍ بالبقايا الأثريّة الموجودة في

متحف في الشَّرق، تملكه عائلة تعيش في الغرب .ولم يُسمَح للمُرمّمين وضع أيديهم على القِطَع إلا باتّفاقيّة أُبرِمَت بعد توحيد ألمانيا في العام ٠٩١١.

بدأ مشروع إعادة الإعمار في آب العام ١٠٠٢ ، حين تم وضع نحو ٠٠٠٧٢ قطعة من البازلت على ٠٠٢ لوح خشبي .وبحلول العام ١١٠٢، أُعيد تركيب ٠٠٠٥٢ شذرة على ثلاثين منحوتة وقطعة معماريّة ً .مع ذلك، ظلّت الشُّروخ مرئيّة، ولم تُبذَل أي محاولة لإخفائها، كما تُرِكَ الزجاج المُذابُ من سقف متحف تَل حَلَف المُدَمَّر بارزاً على أسطح المنحوتات.

أما الشّذرات والقطع المتبقية التي وصل عددها إلى الألفَين، والتي تعذّر تحديدها أو مطابقتها مع أيٍّ من الآثار، فقد حُفِظَت في صناديق وخزنات غرف التّخزين في متحف البيرغامون الذي يخضع حالياً لعمليّة ترميمٍ كَبيرة من المقرّر أن تنتهي في العام ٥٣٠٢.

عندما يأتي ذلك اليوم، ستخدمُ الواجهة المُرَمَّمة لقصر الحاكم في تَل حَلَف كمدخلٍ لقِسم مجموعة الشَّرق الأدنى القديم.

في هذه الأثناء، يقوم أمناء المتحف الوطني في حلب بتكديس أكياس الرَّمل حول النُّسخة الجصّية المطابقة لتلك
الواجهة، بانتظار خمود الحرب في سوريا.

«عندها، قاطعت والدتي وسألتها» :لكنك قلتِ أنها قصّة تجسُّس، فأين هم الجواسيس؟

حسناً«، قالت، »هنا تتعقّد الأمور قليلاً. عندما كنت طفلة، كان جدّي، أي جدّكَ الأكبر، يخبرني » كيف أرسلَتهُ سلطات الإنتداب الفرنسي المتمركزة في لبنان إلى تَل حَلَف في العام٩٢٩١، ليشغل منصب أمين سِرَ ماكس ڤون أوپنهايم، وليجمع المعلومات عن عمليّة التّنقيب الأثري التي ينفّذها هناك«.

في ذلك الوقت، كان الألمان بحاجة إلى وضع خرائط تفصيلية لشمال أفريقيا وبلاد الشّام تهيّؤاً لهجومٍ عسكريٍّ محتمل .وبما أن تلك المناطق كانت تحت الحُكمَين البريطاني والفرنسي آنذاك، كان على رَسم الخرائط أن يحصل سرّاً، فراحوا يرسلون ضُبّاط المخابرات متنكّرين كأنثروپولوجيّين أو علماء آثار في بعثاتٍ استطلاعيّة زائفة.

كان الفرنسيون يشتبهون بڤون أوپنهايم كواحدٍ من ضُبّاط المخابرات أولئك، لأنهم كانوا يعرفون أنه

على مدى السنوات الثلاثين الماضية، كان قد تردّد عدّة مرّات إلى الموقع ذاته على الحدود السورية–التركية، وكانوا يخشون بأنه يحرّض قبائل البدو على التطرّف، ويحضّر لإنقلابٍ سريّ ضد القوى الاستعماريّة.

يبدو أن مهمّة جدّي الأكبر كانت بشكلٍ أساسيّ التَجَسُّس على من كان يُشتَبَهُ بجاسوسيته .كان يكتب تقاريراً عن كلّ ما كان ماكس يفعله ويرسلها إلى بيروت ليقوم الفرنسيّون بتحليلها .إلى جانب تلك المواد، كان يرسل صوراً فوتوغرافيّة إلى زوجته، والدة جدّي، لإبقائها على علمٍ بتحرّكاته.

كانت هذه هي المفضّلة لديها:

عزيزي ڤيكتوريا،
أقبلكي مع الأعزاء جوزيف وألبير وماري، وأتمنّى لكم الصحّة الجيّدة.
هذه صورة حيّة مسكتها في الليل وهي كانت في شادر أحد البدو .بعدما مسكتها ونظرها الجميع قتلتها.
ثاني يوم، صورني المصوّر وأنا ماسكها بيدي.
أنا واقف وخيمتي على يميني .كل شيء جيّد هنا فقط شوب لا يُطاق أبداً.
راسليني بأخباركم وارسلي تحياتي إلى جميع الجيران.
مع أطيب التمنيات وألف قبلةٍ للأطفال.
فائق
تَل حلَف، حزيران ٩٢٩١

لم يتمكَّن الفرنسيّون من إثبات أي تُهمة على ماكس، لذلك، عندما انتهت بعثته في خريف العام ٩٢٩١، إختُصِرَت مهمّة جدّي الأكبر وعاد إلى مزاولة وظيفته اليوميّة كموظَّف حُكومي يترجم الوثائق من العَربيّة إلى الفرنسيّة.

عندما توُفِيَّ جدّي الأكبر في العام ١٨٩١، لم يكن لديه ممتلكات ذي قيمة ليورثُها لأبنائه سوى بساط مصنوع من شعر الماعز كان قد قدّمه له بَدو تَل حلَف .كانَت رغبتهً هي أن يتم تقسيم البساط الذي يصل طوله إلى ٠٢ متراً بين أبنائه الخمسة، على أن يقوموا بدورهم بتقسيمه بين أبنائهم، وهكذا دواليك إلى أن يختفي البساط في نهاية المطاف.

إبنته الصغرى لم تتزوج، فظلّت قطعتها، التي تشكّل ٥/١ من البساط الأصلي، سليمة.

.كان لابنه الثّاني، أي جدّي، ولدَين :أمّي وخالي

.قطعة خالي هي ٢/١ من ٥/١ من البساط الأصلي

.أمّي لديها ولدَين :أنا وأختي

.قطعتي هي ٢/١ من ٢/١ من ٥/١ من البساط الأصلي

أختي لديها ابنتَين :ياسمينا ونور .قطعة كلّ منهما هي ٢/١ من ٢/١ من ٢/١ من ٥/١ من البساط الأصلي.

.حتّى اليوم، تم تقسيم البساط إلى ثلاثة وعشرين قطعة على مدى خمسةِ أجيال

خلال عمليّة التّنقيب الأولى التي أجراها ماكس في العام١١٩١، إكتشف على طول الجدار الخلفي للمعبد سلسلة من ٤٩١ لوحاً حجريّاً منحوتاً .تتعاقب الأحجار من البازلت الأسود إلى الحجر الجيري المطلي باللون الأحمر، لتشكّل إفريزاً من التّصويرات التي تشمل الحيوانات والنباتات والآلهة ومشاهداً من الحياة اليوميّة.

قبل تشتُّتها، كان الهدف هو رسم اللوحات الحجرية وتصويرها فوتوغرافيّاً وقياسها وصنع نُسَخٍ جصيّة مَطابقة لها .لكن الاندلاع المفاجئ للحرب العالميّة الأولى حالَ دون إكمال هذه المهمّة، فَشَحَن ماكس جزءاً من المواد التي اكتشفها إلى الإسكندرية.

في العام ٤١٩١، استولت سفينة بحرية بريطانية على سفينة شحن ألمانية كانت قد أبحرت من الإسكندرية متجهةً إلى برلين .كان على متن السفينة خمسة عشر لوحاً حجرياً من تَل حَلَف، بالإضافة إلى ما يزيد عن ٠٠١ صندوق يحتوي على نحو ٠٠٧ قطعة أثريّة .ولأن البضائع كانت تعتبر ممتلكات العدو، استولت الحكومة البريطانية على ملكيةّ القطع الأثرية وعرضتها للبَيع .وفي العام ٠٢٩١، دخلت الشحنة بأكملها، بما في ذلك الألواح الخمسة عشر، مجموعة المتحف البريطاني في لندن.

في العام ٧٢٩١، عاد ماكس إلى تَل حَلَف لمواصلة الحفر والتّنقيب .وبينما كان يجرُد الآثار التي كان قد تركها، لاحظ اختفاء خمسة وخمسين لوحاً حجرياً.

مع نهاية البعثة في العام ٩٢٩١، وبعد تقسيم المقتنيات الأثريّة مع الفرنسيّين، تم نقل خمسة وثلاثين لوحاً إلى حلب لعرضها في المتحف الوطني هناك.

في العام ٠٣٩١، وعندما تمّ إفراغ القطَع الأثريّة من صناديق الشَّحن من أجل تجهيز المعرض الإفتتاحي لمتحف تَل حَلَف في برلين، لَاحظ ماكس أن ستة ألواح حجرية كانت قد فُقِدَت في طريقها من الإسكندرية إلى برلين.

بعد افتتاحِ المتحف، سافر ماكس إلى نيويورك في محاولة لبيع ثمانية من ألواح تَل حَلَف. وصل هناك بعيدَ انهيار سوق الأسهم الماليّة وفشل في العثور علَى مُشتَرٍ، فأودَعَ الألواح في مخزنٍ يملكه أحد تجار الفنون المحلّيين وعاد إلى برلين. في ١١ آذار العامٍ ٢٤٩١، وَقَّعَ الرّئيس ثيودورٍ روزڤلت أمراً تنفيذيّاً بإنشاء مكتب «أمين الأملاك الأجنبيّة»، الذي كانت مهمّته الإستيلاء على ومصادرة المواد الموجودة على أرض الولايات المتحدة ولكن مملوكة من أعدائها. بموجب شروط هذا الأمر، تم إخراج الألواح الثمانية التي وضعها ماكس تحت رعاية تاجر الفنون المحلّي وعُرِضَت للبيع في مزادٍ علني. حصل كلٌّ من متحف والترز للفن في بالتيمور ومتحف المتَروبوليتان للفنون فًي نيويورك على أربعةٍ منها.

في العام ٣٤٩١، عندما حَضَرَ مدير متحف الشَّرق الأدنى القديم في برلين لتقييم الأضرار التي لحقت بمتحف تَل حَلَف من جرّاء القصف، أشار إلى أن إثني عشر من الأواح قد دُمِّرَت بالكامل ولا يمكن إصلاحها.

وفي العام ٤٧٩١، تبرَّعت المتاحف الوطنية في حلب ودمشق بمئة وأربعين قطعة من أجل تأسيس متحف دير الزّور، وهو مؤسَّسة مُكَرَّسة لتاريخ وعلم آثار منطقة شَمال شَرق سوريا. كانت واحدة من القِطَع الآتية من حَلَب لوحُ حجري من تَل حَلَف.

في الثّلاثينيّات، أراد ماكس أن يشكر السّلطات الفرنسيّة على تعاونها معه في عمليّات التّنقيب في سوريا، فقدّم ثلاث لوحات حجرية لمتحف اللوڤر في باريس كهديّة. وفي العام ٦١٠٢، حَصَلَ المتحف على لوحٍ رابع من إبن حفيد أحد الجنود الفرنسيّين الذين خدموا خلال الحرب العالمية الأولى. كان الجًندي متمركزاً بالقرب من تَل حَلَف، وزعم أنه اشترى اللوح من أحد البدو.

اليوم، من الألواح الـ ٤٩١ التي تم تنقيبُها في تَل حَلَف، ٩٥ منها موجودة في برلين، ٤ في باريس، ٥١ في لندن، ٤ في نيويورك، ٤ في بالتيمور، ٤٣ في حلب، واحد في دير الزّور، ٦ مفقودة، ٢١ دُمِّرَت، و٥٥ منها اختفت.

في العام٢٠٠٦، توجّه فريق ألماني-سوري مشترك من المنقّبين إلى تَل حَلَف لمواصلة العمل الذي تركه ماكس خلفه منذ ٧٧ سنة .عادوا إلى الموقع خمس مرات إلى أن انقطعت أعمال البعثة في العام ٢٠١١ مع بداية الانتفاضات في سوريا.

اليوم، يقع تَل حَلَف على الحدود بين سوريا وتركيا، في منطقة خاضعة للحُكم الكُردي.
قبل وفاته، بعث ماكس رسالةً إلى مدير متحف الشَّرق الأدنى القديم في برلين يوصيه فيها بأن يُبلغ الشخص الذي قد يتولى مستقبلاً مهمة تجميع القِطَع الأثريّة المدمَّرة، فَـ »كُن صبوراً !حظّاً سعيداً !وابقَ مُبتسما «!بالألمانيّة:
"KOPH HOCH! MUT HOCH! UND HÚMOR HOCH!"